المحافظة والمشخصات القومية

للدكتور منصور فهمى بك

اتسم العصر الحاضر بطابع السرعة والمفاجآت والانقلابات العنيفة ، وأخذت تيارات الحضارة الغربية تجرف أمامها مشخصات أمم كثيرة ، ويخيل للمفكرين أن النفوس أصبحت تتشوف لهدآت العصور الماضية وبعض أساليبها ونظمها ، وأصبحت تنشد كبحا لهذه العجلة التى تزعج أعصاب البشر بسيرها العنيف .

وقد يطيب للمتحدثين خلال هذه المظاهر من التجديد والتغيير السريع والانقلاب أن يتباحثوا فيما بينهم عن محامد الجمادة والمحافظة وما اليها من بحوث ودرس حين تضنيهم سرعة السير ، وقد يتذكرون المترفق بدابته حين يرون أن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

ومهما تنوعت الأحاديث عن الجمادة وتشعبت فى المحافظة ، فهذه الأحاديث ترتكز دائما على بعض الدعاوى المستمدة من فطرة الناس ونزعاتهم ، كاطمئنانهم الى مايعرفون ويألفون ، وحنينهم وشوقهم لصور عزيزة وأشباح كريمة من الماضى تمثل محامد المتقدمين من أسلافهم ، وكنزوعهم للمقاومة والكفاح عند استشعارهم بما يغير نظمهم وأساليب سعيهم وكسبهم فى هذه الحياة . وكما أنه يطيب للناس فى عصور الانقلاب أن يتحدثوا عن المحافظة وشئونها ، فقد يطيب الحديث فى التجديد عند حالات الجمود وفى عصور الركود ، ومهما تنوعت الأحاديث عن معانى التجديد وتشعبت ، فإنها ترجع فى جملتها الى أصول من الشغف بمعانى الحرية والرغبة عن قيود الماضى أو الحاضر .

وفى الحق إن المحافظة والتجديد كلاهما ميدانان متلاصقان متجاوران ، وقطبان متواصلان ، تجرى بينهما مظاهر التاريخ فى الأمم وفى الإنسانية جمعاء ، وقد يختلف من هذا الحريان وعند جهات الجاور والتلاقى ، بين المحافظة والتجديد ، خير ما فى معانى التقدم والرقى .

وإذن تكون المحافظة والتجديد كلاهما صالحين لازمين لتوكيد النظام فى الخطوات المتلاحقة المتقدمة الى التكمل ، فالمحافظ المتزن ينبه المسرع فى عدوه الى مواضع العثار ، والأخير ينبه الأول لمساوئ الإبطاء وطول الطريق .

ولو صحت التشابيه فى تقريب المعانى لجاز لنا أن نشبه المحافظين بذلك النازح الذى يحمل فى حقيبته جديد ثيابه وقديمها ، حتى اذا أضرت شئون السفر بثوبه الجديد لجأ الى قديمه ليصلح ببعضه ما بلى من هذا الجديد . أما المجددون فربما كان مثلهم مثل من يحسن الظن بجدة ثوبه ومتانته فيحمله معه فى سفره دون أن يعمل حسابا لمستور المفاجآت ، فاذ تمزق هذا الثوب من مشاق السفر ومتاعبه تعذر أن يرقع الثوب وأصبح العضو العارى عرضة للأذى .

ولقد أدركت الأمم التى تتخذها مثلا فى الحياة العمرانية فضل المحافظة فسمحت الصدور لأشياعها وأحزابها فى انجلترا والولايات المتحدة وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من البلدان .

وفى الحق إنه لو عاشت الأمم على هوى المجددين وأساليبهم لخيف أن تنقلب نزعات التجديد وما اليها من نزعات الحرية الى ضرب من الفوضى وعدم الاستقرار على شىء ، ولو أن الأمم كانت تعيش على نمط المحافظين وحدهم لخشينا أن تنقلب هذه المحافظة الى وقوف وجمود ورجوع الى الوراء .

وعلى ذلك فينبغى أن يسمع فى الأمة الواحدة صوت المجددين وصوت المحافظين فدويهما المتناسق يرشد الى أمثل الطرق التى تسلك للتقدم الصحيح الجامع بين ماضى الأمم وحاضرها ومطمحها من المستقبل ، الجاعل من تاريخها سلسلة متواصلة الحلقات تنتظم عليها مقومات الشعوب منذ الماضى البعيد الى الحاضر المتوثب ، الدافع فى شخصية الجماعة قوة التماسك والترابط .

و إننا عند ما نحض على مباحث المشخصات القومية ، ونصل ذلك بالترغيب فى المحافظة والدعوة اليها ، فاننا لا نريد أن يفهم من المحافظة التى نقول بها نكران التجديد وخصومته ، فما كانت المحافظة الرشيدة قط عدوة التجديد ، لكنها قد تعادى كل تجديد أبتر منقطع عن ماضى الشعوب أو لا يتصل بحاجة ملحة من حاجاتها حين تشعر تلك الشعوب شعورا يقظا واعيا .

و إنى أربأ بالمحافظة الرشيدة أن يساء فهمها ، فأكره أن يتخذها الجاهلون سلاحا يحارب به التقدم ، لكنى لا أكره أن تكون المحافظة أداة لتعويق السير الاهوج ، ومحولا يرد القافلة الى الطريق المستقيم .

أربأ بالمحافظة الرشيدة أن يساء فهمها ، فأكره أن تسوغ لأحد أن يتخذ شرا من شرور الماضى ليفرضه على الحاضر أو يقتلع شجرة خبيثة مما أنبتته العهود الخالية ليستصلح لها تربة ينبتها فيها ، إنما لا أكره من المحافظة ألا تفرط فيما قل من خيرات الماضى لحشره فى زمرة

ما يحل من خيرات الحاضر، ولا أكره من المحافظة أن تأتى بالزهرة الذابلة من الماضى فتضعها مع زهرات الحاضر لتزهو معها وتعيش وتزدهر .

هذه هى المحافظة الشريفة التى ننشدها لبلادنا ونسلك منها للاحتفاظ بمميزاتنا عن سوانا من الأمم ، وإننا حين نرفع الصوت لنستحث الهمم الى استغلال كل جمال نوعى أودعه الله طبائع بلادنا أو تقاليدنا ، فاننا نحرص بذلك على ألا تكون المبالغة فى السير السريع فاصلة بين قاطرة التقدم مما يتصل بها من أصابع مخلفات الماضى القريب أو البعيد .

وأننا حين نحفز ما فى النفوس من طبائع المحافظة فقد نعتمد فى ذلك على قوى طبيعية غير مصنوعة ولا موهومة . وذلك لأن الأمم تتكون من جيل يزول وآخر يقبل ، ولكلا الجيلين تقديرات مختلفة لأمور الحياة . على أنه برغم ذلك الاختلاف ، فلكل من الجيلين حق مقدس فى أن يطمئن الى حياته التى يأنس بها . ومن ثم يتحتم مراعاة نزعات الماضين ونزعات المقبلين من حرمة وقداسة ، وكذلك لحظت دساتير الأمم الرشيدة أن تكون مجالسها النيابية ممثلة لنزعات الشيوخ ونزعات الشباب وآراء الدابرين وآراء المقبلين .

ولقد آن الوقت للحافظين أن يلموا شعثهم ، ويعدوا عدتهم لكى تسمع كلمتهم فى مسير الأمة وحاجة الإصلاح ، وأنه حين يضاف صوتهم لصوت المجددين فقد يظفر الوطن من ذلك كله بلحن كامل ، ونغم متناسق يطرد به السير المنتظم والرقى المنشود .

منصور فهمى

— الحكمة فى أفواه العلماء ، وعلى شفاء الدهماء ، كالدر يكون فى قاع البحور ، ويكون فى نواعم النحور ، وكشعاع الشمس يقع على الوحل ، كما يقع على الزهر .

شوقى

— لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا ، اذا علمتم فاعملوا ، واذا تيقنتم فأقدموا .

— بينكم وبين الكمال حجاب من الغرور .

— كفاك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك .

— كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشدك .

على بن أبى طالب